

الصحراء المغربية ومسألة تقرير مصير الشعوب

في إطار النقاش الايديولوجي الدائر في الساحة المغربية، هناك في وجهة نظرنا، طرحان خاطئان للمسألة الايديولوجية في كليتها : الاول يركز على خصوصيات الواقع المغربي كنتاج لتطور تاريخي معين، ليجعل منها مبررا كافيا لنبذ النظرية الثورية باسم الاشتراكية العلمية و"التحليل الملموس للواقع الملموس". أما الثاني فيستعمل التبسيط ويختصر كل المسافات في أن هناك نظرية جاهزة تتلخص في "الماركسية اللينينية" قد أجابت على كل شيء ، ولم يبق سوى تطبيق ما هو نظري جاهز على الحالة المغربية المشخصة.

وإذا كنا قد تعرضنا غير ما مرة للانحرافات والمغالطات التي يؤدي إليها الطرح الاول، فانتنا نريد هنا التعرض للطرح الثاني، مع أننا لا ننوي الإجابة على الإشكالات التي يطرحها هذا الاتجاه، إذ أنها تطرح المسألة الايديولوجية بأكملها، وهذه الأخيرة، لا يتم الجواب عليها أو معالجتها من خلال مقال أو حتى سلسلة مقالات، بل هي بالاساس جهد نظري متواصل وواسع المجال، وممارسة عملية مطابقة له في نفس الوقت . سنكتفي إذن بطرح جملة من الملاحظات قد تلقي بعض الاضواء على المسألة :

الجانب الشكلي

ان اختصار المسألة الايديولوجية في رفع شعار "الماركسية اللينينية" هو اختصار اقل ما يقال عنه أنه تبسيطي وضيق الافق . فهذا التعبير : "الماركسية اللينينية" ظهر تاريخيا للوجود خلال عهد ستالين، بيد أنه لوسئل المعنيان بالامر (ماركس و لينين) عن رأيهما بهذه المقولة المشخصة والمختصرة، لرفضها بالاستناد على الاقل على جانبها الشكلي، فهما اللذان رفضا باستمرار اعتبار التحليل الاشتراكي العلمي تحليلا

جامدا، صالحا لكل زمان ومكان، فبالاحرى أن يقبلا بتشخيصه .

ان تطور الأفكار الاشتراكية لم يبدأ عند هذين العبقريين، كما أنه لم يقف ولم ينته عندهما، بل انه استمر في عملية تطور واغناء دائمة، استفادة من تجارب الشعوب ومكتسباتها على الصعيدين النظري والعملية. ثم ان هذا الاختصار التبسيطي على مستوى الشكل في الطرح الايديولوجي، يقودنا الى التساؤل على المضمون نفسه والتخوف من استنساخ الشعارات والمقولات والتحليلات التي كانت صالحة لاوروبا (أو الصين) في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، محاولة فرض الباسها على واقع مغاير متميز: الواقع المغربي تحديدا. وهنا نريد اثار الانتباه الى المفارقات الاساسية التالية:

أولا: ان اوروبا في ذلك العهد، عاشت ثورتين أساسيتين مترابطتين: الثورة الصناعية من جهة، والثورة الثقافية من جهة ثانية، وكلاهما مهدتا أولا لنشوء الطبقة البورجوازية المكافحة آنذاك ضد النظام الاقطاعي ونموها بشكل مواز لنشوء نقيضها: الطبقة العاملة. والثانية مهدت لبروز الفكر الاشتراكي في ارضاهاته المبكرة، ثم في شكله العلمي الحديث. وغني عن القول أن بلدنا، شأنه شأن ما يسمى حاليا ببلدان "العالم الثالث" لم يعيش هاتين الثورتين والتطور الذاتي والموضوعي الناتج عنهما لاسباب تاريخية معينة - لا يسع المجال هنا للتعرض اليها - وبالتالي فان التدخل الاستعماري كان هو العامل الاساسي غير المباشر في نشوء الطبقة العاملة المغربية، وتطور الطبقة الاقطاعية أيضا. مع العلم أننا لم نعش كذلك لا الثورات البورجوازية التي شهدتها اوروبا ضد النظام الاقطاعي، ولا توافد أنماط الانتاج (البدائي، العبودي، الاقطاعي، البورجوازي) بشكل يطابق أنماط الانتاج الاوربية، وما تضمنته من علاقات انتاجية واجتماعية وسياسية وايدولوجية مقننة ومحددة.

ثانيا: اذا كان لينين قد تعرض لظاهرة الامبريالية (كأرقى مراحل الرأسمالية) والاستعمار - خلافا لماركس الذي لم يكن بإمكانه التعرض اليها لانها لم توجد خلال عصره ولم يكن بإمكانه التنبؤ بها - فان هاتين الظاهرتين قد عرفتا تطورات كمية وحتى نوعية لم يكن بإمكان لينين ادراكها لانه لم يعيشها أيضا. فالتمركز الرأسمالي العالمي بلغ حاليا درجة لم يكن عليها أبدا خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، الشيء الذي له بكل تأكيد انعكاساته السياسية والاستراتيجية، وبالضرورة النظرية. أما ظاهرة الاستعمار، فلقد خلقت واقعا متميزا داخل المستعمرات تحديدا، كما ان تحوله الى استعمار جديد، والاساليب التي ابتكرها لهذا الغرض، كلها تغيرات وتطورات لا مناص من أخذها بعين الاعتبار ودمجها ضمن التحليل العلمي الشامل.

ثالثا: وضمن هذه المتغيرات، نشير الى المفارقة الملحوظة فيما بين حركة "الصوياال - ديموقراط" التي قامت على أسس ثورية طبقية في اوروبا، أي من أجل مواجهة الحكم القائم، بورجوازيا كان أم اقطاعيا - بورجوازيا، كما كان عليه الحال

بالنسبة لروسيا القيصرية. وداخل حركة "السوياال-ديموقراط" الاوربية هذه، تم الفرز فيما بين الثوريين والاصلاحيين. أما بالنسبة لمثيلاتها حركات التحرير في عصرنا الراهن، وبالنسبة للمستعمرات وشبه المستعمرات، فلقد قامت بالاساس في اطار وطني، أي لوضع حد للتواجد الاستعماري. ولقد ترتب عن ذلك مضاعفات نظرية وعملية عميقة بالنسبة لقيام الحزب الثوري المستقل: منها أساسا أن هذه الحركة شملت جبهة وطنية واسعة، ضمت العمال والفلاحين والبورجوازيين الصغار وأيضا البورجوازيين بل وحتى بعض الاقطاعيين. والنتيجة المباشرة لذلك، هي ان الفرز لا يمكنه أن يتم بشكل آلي، بل انه يمر حتما بمرحلة أطول وأكثر تعقيدا، وصولا الى هدف بناء الحزب الثوري الطلائعي الذي لا يزال مطروحا كمهمة مستمرة في التطور بالنسبة للمغرب مثلا...

رابعا: ولا أحد يمكنه أن ينكر الدور الذي لعبه الدين الاسلامي في مجتمعاتنا والذي لا علاقة له بالدور الذي لعبته الكنيسة في عهد ماركس ولنين. هذه المسألة لها علاقة مباشرة بواقعنا العربي وما يطرحه من شعارات ومهام قومية ووحودية لمحو آثار التجزئة والتقسيم والتبعية، تلك المهام التي لا تتناقض في شيء مع مهام الثورة الوطنية الاشتراكية في كل قطر على حدة، بل تكملها وتبادل التأثير معها، كما أنهما معا يتبادلان التأثير مع مهام مناهضة الامبريالية دوليا وتوطيد تضامن الكادحين عبر العالم.

...

قد يطول بنا السرد لمثل هذه المفارقات، والتي تطرح على الثوريين ليس استنساخ الشعارات والمقولات، ولكن الاجتهاد في تطبيق المبادئ والمنهج العلمي على واقع متغير متميز، ولنكتفي اذن بالتذكير بأن الاشتراكية علم، وكأي علم آخر، فانها في تطور دائم، وهي تستلزم بالتالي الاجتهاد الدائم، وتفرض النسبية عند التطبيق بناء على المتغيرات العينية لكل مسألة مسألة. بيد ان هذا لا يمكنه بأي حال من الاحوال أن يشكل مبررا للانزلاق في التحريفية باسم الخصوصيات المحلية، أو السقوط في الانتقائية.

ان التسلح بالنظرية الثورية ومكتسباتها عبر العصور، مع البحث والتعمق في التطور التاريخي العيني وما أنتجه من تراث حي، من أجل ايجاد "التحليل الملموس للواقع الملموس" - بالمفهوم الثوري للكلمة - لهو في نظرنا المنهج الوحيد الذي يجب أن يتبعه كل الذين يؤمنون بالاشتراكية العلمية، وليس اللجوء الى المقولات الشكلية والتبسيطية، أو رفع الشعارات "الثورية" التي لا تتناسب والواقع الموضوعي الذي يعيشه شعبنا، فضلا على تعارضها مع أوضاعه الذاتية وذهنيته وطموحاته. ولنضرب مثلا

حيا على ذلك بشعار تقرير المصير الذي ترفعه بعض الجهات بالنسبة للصحراء المغربية، وذلك باسم الانتماء "للماركسية اللينينية"...

تقرير مصير الشعوب... وليس الانفصالية.

وحتى ندرك خطورة النقل الميكانيكي للمقولات والشعارات مع فصلها عن ظرفها التاريخي وشروطها، نعطي الكلمة للنين نفسه:

"ان حق الدول في تقرير مصيرها يعني تحديدا الحق في الاستقلال السياسي عن الدولة المضطهدة (بكر الها) . ومن الناحية العملية، فان هذا المطلب المتعلق بالديموقراطية السياسية، يعني حرية الدعاية للاستقلال، وحل هذه المشكلة عن طريق الاستفتاء داخل الدولة التي تريد استقلالها. وهذا المطلب لا يعني بتاتا الانفصال والتجزئة وتكوين الدويلات. انه فقط التعبير المنطقي للنضال ضد أى اضطهاد وطني (....) .

"ان هدف الاشتراكية ليس فقط وضع حد لتجزئة الانسانية داخل الدويلات، ولكل نزعة خصوصية عند الأمم، ليس فقط التقريب بين الأمم، لكن تحقيق اندماجها" (لنينين : حول القضايا الوطنية والكولونيالية - ثلاث نصوص مختارة - المنشورات باللغة الاجنبية - بكيين ١٩٧٠ - ص ٥ - ٦) .

ان هذه التعاريف الدقيقة المعنى، توضح لنا بكل جلاء الظرف التاريخي الذي طرح فيه شعار تقرير المصير، كشعار لتعبئة الشعوب من أجل القضاء على الاستعمار والاضطهاد، وتستدعي منا ملاحظتين أساسيتين:

أولا: ان هذا الشعار يطرحه لينين بالنسبة لشعوب الدول القائمة الذات والتي تعرضت للاحتلال والاضطهاد من طرف الدول الكبرى والامبراطوريات. وهذا ما يزيد في توضيحه عندما يضرب لنا بعض الأمثلة الحية بحق فينلندة وبولونيا والاوكرين في الاستقلال، ويتهمة "الاشتراكيين الروس" الذين لا يطالبون بذلك ب"الشوفينية" والعمالة للملكيات الامبريالية والبورجوازيات الامبريالية" (نفس المصدر - ص ١٦)، او عندما يطرح مسألة الشعوب والأمم غير الروسية التي ضمها النظام القيصرى لامبراطوريته وتعداد سكانها يناهز المائة مليون نسمة آنذاك، ويقول ان: "الاعتراف بحق الأمم المضطهدة من طرف النظام القيصرى في الاستقلال عنه، يجب أن يكون أمرا اجباريا بالنسبة لكل الديموقراطيين الاشتراكيين، بحكم طبيعة اهدافهم الديموقراطية والاشتراكية" (نفس المصدر - ص ١٧) .

فالامر يتعلق اذن بالدول التي قامت الامبراطوريات بضمها قهرا وعملت على اضطهاد شعوبها واستغلالها.

ثانيا: ان لينين يضع في تعارض حاسم مبدأ تقرير مصير الشعوب مع "الانفصال

والتجزئة وتكوين الدويلات" حسب تعبيره. ويبرز في نفس الوقت الابعاد الوجدانية والانسانية للاشتراكية والتي تتنافى والنزعات الاقليمية الشوفينية... وهذا ما يعطي لشعار تقرير مصير الشعوب أبعاده النضالية والسياسية كشعار لتعبئة الشعوب المضطهدة من أجل القضاء على الاستعمار وتحقيق استقلالها الوطني، وفي نفس الوقت تجنيد الاشتراكيين الديموقراطيين في البلد المستعمر (بكر الميم) لدعم هذا المطلب والنضال من أجله من "داخل" هذه البلدان...

لنعد اذن لمسألة الصحراء المغربية لنطرح على أنفسنا هذا السؤال البالغ الاممية النظرية والعملية في آن واحد: هل كانت هناك دولة في الصحراء عملت "الامبريالية المغربية" على ضمها واضطهاد شعبيها؟

الجواب لا يمكن أن يكون الا بالنفي القاطع. الاكثر من ذلك: لا يمكن لاحد بتاتا أن يخلق ثغرات في التاريخ القديم والحديث، ويقول ان الصحراء انفصلت يوما ما عن المغرب، اذ أن كل السلالات والحركات التي أقامت حكما مركزيا بالمغرب قد انطلقت من قلب الصحراء. وحتى ما اذا كان هذا الجانب التاريخي الاكاديمي لا يهمننا كثيرا، فلننظر لتاريخ جماهيرنا الشعبية المغربية، فمن هذه الناحية هل بإمكان أحد أن ينزع من التاريخ صفحة كفاح حركة ما، العيين والهيبة التي انطلقت من الصحراء وكبدت الغزاة والمستعمرين خسائر فادحة، وأعلنتها ثورة ضد السلطة المركزية، وأعلنت مدينة مراكش عاصمة لها، ثم استمرت في الكفاح الى أن أوقفتها قوات الجيش الفرنسي الاستعمارية الزاحفة على ترابنا الوطني في معركة ابن جريز غير المتكافئة العدد والامكانيات... وهل يمكن نزع صفحات الكفاح البطولي الذي خاضه جيش التحرير المغربي بالامس القريب، والذي امتزجت فيه دما الشعب المغربي، صحراويين كانوا أم من وسط المغرب وشماله، هذا الكفاح المرير الذي سجل انتصارات باهرة جعلت مسألة تحرير كامل الصحراء مسألة محققة، لولا تكالب قوى الاستعمارين الاسباني والفرنسي والنظام المغربي ضمن المؤامرة العسكرية المعروفة بعملية "ايكوفيون" .

للحقيقة والتاريخ اذن، فان الاستعمار وحليفه النظام المغربي هما اللذان عملا على فصل الصحراء المغربية على باقي التراب والشعب المغربيين، والنظام الرجعي هو الذي يتحمل مسؤولية خلق الواقع الذي تم صنعه على اثر ابقاء الصحراء المغربية أزيد من عشرين سنة منفصلة على باقي الوطن. والحالة هذه، فان الرجعية المغربية لم تقم بضم واضطهاد دولة وشعب قائمي الذات، بل ان النظام المغربي (والاستعمار) هو الذي عمل على فصل الصحراء. وهذا ما له اهميته النظرية البالغة لتطبيق شعار تقرير المصير.

وللحقيقة والتاريخ دائما، فان الاستعمار الاسباني كان أول من طرح شعار تقرير المصير بالنسبة للصحراء المغربية عندما كان في نيته تكوين دويلة تابعة له هناك، ثم عاد ليتراجع عن ذلك، ويعمل على تقسيم "غنيته" الكولونيالية فيما بين حليفه

"ما عدا مسألة التراب، فكل شيء قابل للمفاوضات: الاقتصاد، السياسة، الأمن، وذلك لاعطاء كل الضمانات للمغرب. ان الوطن الذي نريده، هو وطننا لوحدها ولا لاحد غيرنا، وليس موجها ضد أي أحد. ان هدفنا الاسمي هو أن يكون هذا الوطن بمثابة كويت المغرب العربي. فعندنا عراقنا من جهة، ومملكتنا السعودية من جهة أخرى، ونتمنى أن نقيم علاقات جيدة معها. ومن الواضح، أنه لا يمكن الرجوع الى مغرب الدول دون تسوية مسألة الصحراء، لان الدول يجب أن تكون مبنية على أساس احترام قاعدة مشتركة: الحدود".

وردا على سؤال "هل تريدون الاطاحة بملك المغرب؟"، أجاب قائلا: "لا، ثم لماذا؟"، وأضاف: "يقال أننا نهاجم جنوب المغرب من أجل الاطاحة بالملك. ان هذا غير وارد اطلاقا. اننا نهاجم جنوب المغرب لاسباب التكتيك العسكري المحض فقط".

اما بالنسبة للعلاقة مع الغرب فيقول: "ان لفرنسا واسبانيا علاقات حميمة مع كل بلدان المنطقة: المغرب، الجزائر، تونس وموريتانيا. لماذا اذن لا تكون مع البوليزاريو؟ فكما لفرنسا مكانة عندنا، نطلب أن تكون لنا مكانة عندها. وهذا أمر واضح. اننا نتمنى اقامة علاقات الصداقة والتعاون مع فرنسا، ونعتمد كثيرا على هذه الاخيرة، والدليل على ذلك أننا اعتنقنا الفرانكفونية. أما اسبانيا، فانها خانتنا، ومن الواضح أنها تخضع لضغوط المغرب. لكننا نظن أن تطور الوضعية سيفتح الابواب لدور جديد وسلمي بالنسبة لهاتين الدولتين، ولاوروبا عموما. وهذا ما نتمناه". ان هذا الكلام غني عن كل تعليق...

يبقى اذن أن الشباب المغربي الذي انساق في طرح خاطئ نظريا وعمليا، وراء شعارات تقرير المصير و"البويرة الثورية"، مطالب اليوم، أكثر من أي وقت مضى، بالكف عن دعم الاطروحة الانفصالية ذات المصالح الذاتية والانتهازية، ومراجعة موقفه بالجرأة اللازمة، من أجل الانسجام مع طموحات الشعب المغربي في تحقيق ثورته الوطنية والاشتراكية الحقيقية.

كما أن القوى التقدمية العربية والاجنبية، مطالبة أيضا بالتمعن في موقفها التبسيطي المعارض لمصلحة الشعب المغربي في قضية وطنية عادلة عمل النظام المغربي الرجعي على تشويهاها وتمييعها وتسخيرها لخدمة مصالحه الذاتية والطبقية.



المحليين: الرجعية المغربية والموريتانية، واحتفظ بحصة الاسد فيما يتعلق بالخيرات الطبيعية والمصالح الاساسية بالمنطقة (ومذا التراجع يعود لظروف ذاتية عاشها النظام الديكتاتوري الاسباني في أعقاب موت فرانكو، قد سبق أن تطرقت لها "الاختيار الثوري في أعداد سابقة).

يبقى اذن أن من يطرح شعار تقرير المصير بالنسبة للصحراء المغربية باسم "الماركسية اللينينية"، انما يخطئ خطأ نظريا فادحا، ويعمل على افراغ هذا الشعار من مضمونه الذي يستمد ثورته من الظروف التاريخية والموضوعية التي يجب طرحه فيها، أي ظروف احتلال واضطهاد شعب ودولة قانمي الذات من طرف امبراطورية أو دولة استعمارية كبرى. والاكثر من ذلك، فان رفع هذا الشعار بالنسبة لوضعنا المتميز انما يقود الى العمل على ما أدانه لينين نفسه بشدة، أي "الانفصال والتجزئة وتكوين الدويلات"، والتعارض مع المبادئ الاشتراكية الوحدوية والانسانية... هذا فضلا عن تجاهل المعطيات التاريخية (بمعنى الشعب المغربي ضد الاستعمار والإقطاعية) والتعارض الواضح مع الشعور الوطني للشعب المغربي وطموحاته في تحقيق وحدته واستقلاله، وبعبارة أخرى تقرير مصيره كشعب بالمعنى الحقيقي والواسع للكلمة.

هذا بالنسبة للجوانب النظرية والتاريخية للمسألة. الا أنه يمكننا أيضا أن نقف عند بعض الاعتبارات الذاتية التي قادت بعض الشباب الى رفع شعار تقرير المصير بالنسبة للصحراء المغربية.

فهناك في وجهة نظرنا من يطرح ذلك ويدعو لاستقلال "الشعب الصحراوي" فقط لان النظام تبني مؤخرا "مغربية الصحراء" بعد أن وافق سابقا على مسألة تقرير المصير (مصادقة النظام على ذلك مرتين في دورات الامم المتحدة). أي أن هذا الموقف هو عبارة عن رد فعل تلقائي يرمي الى معاكسة النظام من أجل المعاكسة، وان أدى ذلك الى التعارض مع الشعب المغربي ومصالحه. وهكذا فاذا ما تبني النظام تقرير المصير يجب القول بالمغربية، واذا قال بالمغربية علينا بالعودة لتقرير المصير. وهناك من يتوهم أن "العمل المسلح" في الصحراء ومن أجل استقلالها وتكوين دولة من شأنه أن يخلق "بويرة ثورية" كما يقولون، ستسمح بدعم الثورة المغربية نفسها. ولازالة كل التباس بهذا الصدد، ولكل وهم حول "الامكانيات الثورية" التي لا توجد سوى في الازدهان والمخيلات، نعطي الكلمة لعمر الحضرمي، أحد زعماء ما يسمى بـ"البوليزاريو" ليعبر عن توجهاته الانفصالية الرجعية الحقيقية:

"كوبيت المغرب العربي"

يقول عمر الحضرمي في مقابلة له مع المجلة الفرنسية "استراتيجية افريقيا والشرق الاوسط" (العدد ٩):